

د/ إسماعيل زردومي جامعة الحاج لخضر باتنة

عتبات النص عند النقاد وعلماء الإعجاز

دراسة عتبات النص ليست جديدة في تراثنا العربي فقد وقف عندها كثير من الدارسين السابقين فدرسوا عناوين الكتب ومقدماتها ووقفوا عند مطالع القصائد ومقاطعها كما درسوا حسن الاستهلال والتقسيم وما إلى ذلك مما له علاقة بما يعرف حاليا بالعتبات. هذا المصطلح المعاصر الذي نفخ في مظهره جيرا ر جنيت، فطار في الآفاق وجرى حوله الناس لاهئين، يعني جملة من المكونات المصاحبة للنص ومداخله، وهي بمثابة المفاتيح المساعدة على قراءة المتون، تزود القارئ أحيانا ببعض الإضاءات حول رحلة المتن عبر دور النشر والمطابع، حتى تصل إلى القارئ. وتكاد العتبات في الرؤية المعاصرة تقتصر على القصة والرواية والمسرحية ودواوين الشعر، وفيها يبين الدارسون أن وظيفة العتبات الصادرة من المؤلفين أو ممن هم قريبون منهم تساعد على الولوج إلى أحضان النص بدفء وحميمية، على أن يضع القارئ في حسابه أن العتبات تبقى - عتبات - ولن تعوض الدار مهما بلغت من الحسن أو السوء، لكون الشكوك حائمة حولها وتتسم في الغالب بعدم اليقين، ويطلق عليها "المناصات" التي هي "مجموع تلك النصوص التي تحيط بالنص أو جزء منه، تكون مفصلة عنه مثل عنوان الكتاب، وعناوين الفصول والفقرات الداخلية في المناص¹ فالمناص هو ذلك البهو الفسيح أو الضيق الذي نمر به لندخل المنزل، وقد يتخذ هذا البهو أشكالا وألوانا، وقد يتخذ لونا واحدا. وإذا كان الدارسون قد استفادوا كثيرا من ربط الدراسات الأدبية والبلاغية بنظرية النظم التي انبثقت من دراسة الإعجاز فإنهم لم يستفيدوا بما فيه الكفاية من مجال آخر له علاقة بالدراسات القرآنية، وأقصد مجال مباحث علوم القرآن؛ لهذا سأحاول الإشارة إلى هذه النافذة ضمن أشغال هذا الملتقى الميمون.

¹ - عبد الحق بلعابد، عتبات جيرار جنيت، من النص إلى المناص، منشورات الاختلاف، ط1،

وسأتحدث في هذه المداخلة عن المناصات الأساسية المتعلقة بالنص مباشرة، وأغض الطرف عن المصاحبات الثانوية ذات العلاقات بالطباعة والنشر والإشهار.

العتبات في التراث النقدي

إذا كان مفهوم العتبات في عصرنا يكاد يكون منصبا عما يدور في فلك النص فدراسة العتبات قديما لا تهتم بما يكتب على حواف الإبداع، وإنما تركز عما كتب على بعض التقاليد الراسخة في الثقافة الإسلامية من مثل البسملة والحمدلة والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم وبعض صيغ الافتتاح كقولهم "أما بعد" كما تناولت كتب النقد والدراسات في مقدماتها كالحديث عن العنوان المقترح ودواعي التأليف وخطته وزمان التأليف ومكانه وبعض المناصات الأخرى وكلها مصاحبات النص تضيف بعض الإضاءات على المتن وظروف نشأته، وجهود النقاد في الحديث عن العتبات تنحصر في الغالب الأعم على براعة المطاع الشعرية وحسن الاستهلال واهتموا بالأبيات الأولى من النص الشعري اهتماما بالغاً كذكر الديار والنسيب وما إلى ذلك مبرزين الآثار المترتبة على هذه الافتتاحيات وعلاقتها بالموضوع الأساس في القصيدة وأكدوا على عنصر ملاءمة الافتتاح للمتن كله وللسياقات الظرفية.

يقول ابن رشيق: إن الشعر قفل أوله مفتاحه، وينبغي للشاعر أن يجد ابتداء شعره فإنه أول ما يقرع السمع وبه يستهل أول ما عنده "ويقول": لأن حسن الافتتاح داعية الانشراح، ومطية النجاح¹ ويرى حازم أن "تحسين الاستهلالات والمطالع الدالة على ما بعدها التزلة من القصيدة منزلة الوجه والغرة، تزيد النفس بحسنها ابتهاجا، ونشاطا لتلقي ما بعدها إن كان بنسبة من ذلك.. وربما غطت بحسنها على كثير من التخون الواقع بعدها".²

¹ - ابن رشيق المسيلي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: دار المعرفة بيروت، 1988، ج1، ص: 117.

² - القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بلخوج، ط2، 1981، ص: 369.

كما اهتموا بالملاحظات العامة حول المفاهيم البنائية مثل الديوان ن والبيت والمصرع... أما الحديث عن العنوان فقد غاب في النقد القديم وقامت المطالع مقامه ، فقد صار مطلع قفا نيك .. عنوانا لمعلقة امرئ القيس ، ومطلع بانث سعاد عنوانا لمشوبة كعب بن زهير . وإلى جانب اهتمامهم بالمطالع اهتموا أيضا بالخواتم ، فقال ابن رشيق " خاتمة الكلام أبقى في السمع وألصق بالنفس ، لقرب العهد بها فإن حسنت حسن ، وإن قبحت قبح ، والأعمال بخواتمها ..."¹

و كان الجاحظ من أوائل من ربط بين عتبات النص الشعري وعتبات النص القرآني وذلك حين قال : سمي الله كتابه اسما مخالفا لما سمي العرب كلامهم على الجملة والتفصيل ، سمي جملة قرآنا ، كما سموا ديوانا ، وبعضه سورة كقصيدة ، وبعضها آية كالبيت ، وآخرها فاصلة كقافية... " (2) فالجاحظ أجرى هذه الموازنات بين التسميات ، وتدرج في ذكرها من الكل إلى الجزء ، وبمثله عمل السيوطي الذي ربط بين الاهتمامات النقدية والدراسات الإعجازية قائلا : "وقال أهل البيان من البلاغة حسن الابتداء ، وهو أن يتأنق في أول الكلام ، لأنه أول ما يقرع السمع ، فإن كان محررا أقبل السامع على الكلام ووعاه ، وإلا أعرض عنه .. فينبغي أن يؤتى فيه بأعذب اللفظ وأجزله وأرقه وأسلسه وأحسنه نظما وسبكا ، ... " ثم قال : " ... وقد أتت جميع فواتح السور على أحسن الوجوه وأبلغها وأكملها ، كالتحميدات وحروف الهجاء والنداء وغير ذلك "² إن النص القرآني هو مصدر كل الحركة الأدبية والنقدية في القرون الأولى من الحضارة الإسلامية ، ولهذا ربطنا هذه المداخل بعلوم القرآن وسنقف بالخصوص عند العنوان الخارجي والعناوين الداخلية والاستهلايات أي فواتح السور وما يتعلق بها ، وقد نورد بعض ما يتعلق بالخواتم.

¹ - نفسه ج 1 ، ص : 388-389.

² - جلال الدين السيوطي. الاتقان في علوم القرآن ، تحقيق : فواز أحمد زمرى ، دار الكتاب

ولعل أول ما ينبغي الوقوف عنده هو العنوان المتداول شفوياً وكتابياً بين المسلمين "القرآن" والذي له أسماء كثيرة منها "الكتاب" و"الذكر" و"الفرقان"....، وقد روى السيوطي أن أبا المعالي غزيري بن عبد الملك، قال اعلم أن الله سمى القرآن بخمسة وعشرين اسماً...¹، وسنقف عند أشهر هذه الأسماء باعتبارها عناوين إذا أطلقت، عرف منها المقصود، والتداول جعلها كأسماء الأعلام مختصة بكلام الله سبحانه، تدل على المن وتتناص معه وهذه الكيفية يتم تحليلها.

في البدء نقول إن هذه العناوين الأسماء من وضع المرسل الأول "الله سبحانه وتعالى" فهي، ورغم ذلك فقد خاض فيه الخاطئون، فقالوا: شعر، وقالوا: سحر، وقالوا: أساطير الأولين اكتسبها فهي قلى عليه بكرة وأصيل. لتسمية هذا المولود الجديد أحدثت اضطراباً وحيرة لدى المستمعين لهذا كانت التسمية ربانية، وهي بمثابة اسم جنس يطلق على هذا الكلام المجموع بين دفتي المصحف، والذي يؤدي وظائف تشريعية، وتوجيهات تعبدية، وإشارات كونية وقصص أمم غابرة.

القرآن: قيل أنه اسم علم غير مشتق خاص بكلام الله، وقيل إنه مشتق من قرئت الشيء بالشيء إذ ضمنت أحدهما إلى الآخر وسمي به لقرا ن السور والآيات والحروف، قال الفراء: "هو مشتق من القران لأن الآيات يصدق بعضها بعضها وتشابه بعضه بعضا وهي القران"، ويرى عن أبي عبيدة أنه يقول إنما سمى قرآنا لكونه جمع ثروات الكتب السالفة المتزلة كلها وقيل لأنه جمع أنواع العلوم كلها.²

إن القرآن اسم لوجود³ هذا النوع من الكلام الخاص المميز عن غيره، وإذا أطلق عرف به دون غيره، ولم يتجراً أحد إلى الآن أن يأتي بشيء يسميه قرآناً، "

¹ = الإتيان، ص: 135-138.

² = الإتيان، ص: 137.

³ = مصطفى سلوي عبات النص، المفهوم والموقعية والوظائف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية،

جامعة محمد الأول، وجدة، سلسلة بحوث ودراسات 22، ط1، 2003، 185

والقرآن في اللغة مصدر بمعنى القراءة غلب في العرف العام على كتاب الله تعالى المثبت في المصاحف كما غلب عليه في عرف الشرع الكتاب من بين سائر الكتب، كما غلب اسم الكتاب على كتاب سبويه في عرف النحاة..¹

ذلك أنه من عادة القوم أن يسموا كل أمر ذي بال، وإذا كان القرآن اسماً أطلقه الله على كلامه المنزل على نبيه عن طريق جبريل، فإن القوم حين جمعوه مكتوباً تولد لديهم كائن محسوس فسعوا إلى تسميته، وقد ذكر السيوطي في الإتيان أن القوم لما جمعوا القرآن كتبوه في الورق، فقال أبو بكر... " التمسوا له اسماً فقال بعضهم السّقر، وقال بعضهم المصحف، فإن الحبشة يسمونه المصحف"².

ولذا قال آخرون " القرآن اسم لكتاب الله له علاقة بالقراءة، والجمع لأنه يجمع العلوم كلها، ويقرأ لزول أوله المشتمل على الأمر "اقرأ " علاقة بمغزاه، ولقوله تعالى: " فإذا قرأناه فاتبع قرآنه" والقرآن في اللغة مصدر بمعنى القراءة غلب في العرف العام على كتاب الله المثبت في المصاحف."³

ولاشك أن للعناوين قوة خاصة في إيجاد الانتظار الذي يمكن أن يحفز الإدراك والفهم. الكتاب: سمي كتاباً لأنه يكتب، وهو التسمية العرفية المتداولة في الشرع: "والكتاب مدون بالأقلام، ولهذا يحفظ في الصدور والسطور. وقال السيوطي: " فأما تسميته كتاباً فلجمعه أنواع العلوم والقصص والأخبار على أبلغ وجه، والكتاب لغة الجمع."⁴

¹ - عبد الله بن إبراهيم الشنقيطي، نشر البنود على مراقبي السعود، وضع حواشيه فادي نصيف طارق يحيى، دار الكتب العلمية، بيروت ط2/ 2005/1426، ج1، ص: 64.

² - السيوطي، الإتيان ص: 139.

³ - الشنقيطي، نشر البنود، ج1، ص: 64-65.

⁴ - السيوطي، الإتيان، ص: 136.

وقد وردت التسمية "الكتاب" في آيات كثيرة، منها "ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه" ويمكن الربط بين تسميته "قرآنا" و "كتابا" بكون المقروء يكون مكتوبا. كما يمكن النظر إلى أن "القرآن" متلو بالألسن، أما الكتاب فروعي فيه التدوين على الصحف، ولذا رأى بعضهم أن القرآن محفوظ بكيفيتين محفوظ في السطور والصدور، ولا ثقة في إحداها إلا بالتطابق مع الأخرى¹،

الفرقانان: يسمى الفرقان لأنه فرق بين الحق والباطل، أو لكونه نزل منجما مفروقا بين بعضه البعض، لقوله تعالى، وقرآن فرقناه لتقرأه على الناس على مكث" (الاسراء: 106).

... لإيراد جملة من مطاعن المشركين في القرآن فإن الفرقان بالمعنى الأول جاء للرد على كثير من الأقوال ردا حاسما ومن بين تلك المطاعن، قول المشركين "لولا نزل هذا القرآن جملة واحدة" فكانت الإجابة كذلك لتثبت به فؤادك، ورتلناه ترتيلا. (الفرقان: 32)

والملاحظ أن اسم الفرقان أطلق على توراة موسى، قال الله: " ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان" (الانبياء: 48)، مما يرجح كونه تفريقا بين الحق والباطل (لاشتراك الرسالات السماوية كلها في ذلك). ويبدو أن الداليتين تؤديان وظيفة مشتركة .

الذكر : الذكر يشتمل على داليتين أساسيتين، الذكر بمعنى الشرف "" وإنه لذكر لك ولقومك " (الزخرف: 44) والذكر بمعنى الوعظ بأخبار الأمم الماضية والتذكير بها "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له حافظون" (الحجر: 9-). فالقرآن يذكر بمن سبق من الرسل وبأفعال أمهم، وهو بذلك تسمية وظيفية قائمة على الهيمنة، ذلك أن أهل الكتب الأخرى يبدون ما يريدون. ويخفون ما يريدون، فلما جاء الذكر تحداهم بالحفظ الرباني من كل تحريف ، ذاكرا لما أخفته الأقوام الأخرى أو حرفته، بحيث لم يثبت أن ذكر شيء في القرآن واتضح خلافه، فهو يقوم مقام الكتب الأخرى، ولا تقوم مقامه، كما له وجه آخر وهو كونه سهل ميسر للحفظ والاطلاع عليه، لذا قال سبحانه وتعالى: "ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر " (القمر) .

فمعاني الذكر تتوجه إلى التاريخ، وإلى التوثيق، وإلى سهولة تناوله على مدى الأيام والدهور .

¹ - عدنان زرزور، نصوص القرآن جامعة دمشق ، مطبعة خالد بن الوليد ، سنة: 1980/1400. ص: 42.

ولا شك أن أسماء القرآن متفاوتة في دلالاتها، فمنها الدالة على العلمية، ومنها الدالة على الوصفية، ومنها الجامعة بينها، وكلها تحمل بكلام الله تتسع دلالاتها. وقد فصل الزركشي ومن بعده السيوطي في شرح بقية الأسماء وغرضنا نحن التذكير بهذا الباب وليس استقصاء مافيه . ومن خلال هذه الأسماء التي ذكرتها نجد أنفسنا أمام " حلقة فاصلة بين مرحلة الشفاهية، ومرحلة التدوين. " ¹ " ومرحلة الثبات والتغيير " هذه المرحلة التي انقطع فيها الوحي بتكفل الله سبحانه لحفظ الذكر إلى قيام الساعة، وهي مرحلة يفرق فيها بين الحق والباطل بشكل قطعي، ولن تعود الأوضاع الإنسانية إلى ما كانت عليه، فالكتاب مكتوب ويبقى مقروءا يذكر الإنسانية بماضيها، ويذكرها بأوامر ربها ونواهيها، ومن خلال ذلك كله شرع المرسل إليه محمد صلى الله عليه وسلم، في المرحلة العملية بتكليف الأسرى أن يعلموا عشرة من الناس كفدية لأنفسهم.

هذه الأسماء (القرآن، الكتاب، الذكر، الفرقان وغيرها) هي العناوين الأساسية الأكثر تداولاً، قد اكتسبت قيمة دينية كبرى، إذ هي مقدسة من خلال الأمر الوارد في المتن : "إنه لقرآن كريم. في كتاب مكتوب. لا يمسه إلا المطهرون. تنزيل من رب العالمين " الواقعة: 77-80

كما اكتسبت قيمة شمولية " ما فرطنا في الكتاب من شيء"، وقيمة إرشادية قوية " إن لهذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، ويبشر المؤمنين..." (إسراء: 9) ولهذا تكتب على المصاحف العلامة الخاصة ، القرآن الكريم، أو يماثل هذه العبارة مما يميزه ويحدد مرجعيته. هذه بعض العناوين الكلية يمكن أن توجه توجيهها فكريا حضاريا، أو توجيهها دينيا، أو لغويا دلاليا، أو فنيا بيانيا أو غير ذلك .

العناوين الفرعية

القرآن الكريم يحتوي على مجموعة من السور يبلغ عددها 114 أربع عشرة مائة سورة،
السورة: بالهمز وبلا همز، فمن همزها جعلها من أسأرت أي أفضلت، من السور وهو ما يبقى من الشراب في الإناء كأنها قطعة من القرآن 0

¹ - نصر حامد أبو زيد مفهوم النص ، ، المركز الثقافي العربي ، المغرب/لبنان ط6، 2005. ص: 53.

ومنهم من يجعلها من سور المدينة لإحاطتها بآياتها واجتماعها كاجتماع البيوت بالبيوت" قيل سميت كذلك لارتفاعها لأنها كلام الله، والسورة المعزلة الرفيعة.¹ " وقيل الحكمة في تسوير القرآن سورا تحقيق لكون السورة بمجرد ما معجزة وآية من آيات الله، والإشارة إلى أن كل سورة غطت مستقلة.

وقد تنبه الدارسون إلى الأثر النفسي لتقسيم القرآن سورا، منها " أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع وأصناف كان أحسن وأفخم من أن يكون بابا واحدا " ذلك أنه إذا قرأ سورة أو بابا من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله، والحافظ إذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها فيعظم عنده ما حفظه"² وقد قيل " إنها سميت بذلك لتمامها وكمالها من قول العرب للناقة التامة، سورة، ولعل هذا أقرب الآراء للصحة."³

والسورة اسم عام في القطعة من القرآن المشتملة على أي ذوات فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات وأطولها 285-286 آية

ثم إن لكل سورة من القرآن اسما يميزها، كسورة البقرة أو سورة الإخلاص، وتسميات السور بعضها منقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعضها غير منقول، لهذا صار لبعض السور أكثر من اسم، مثل الفاتحة التي سميت باثني عشر اسما توسع المفسرون في دلالة كل منها⁴ وسورة البقرة (فسطاط القرآن)، وسورة محمد (القتال) و سورة غافر (المومن)، الإسراء (بنو إسرائيل).

¹ - القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ج1، ص: 95.

² - السيوطي إتيقان ، ص: 172-173..

³ - عدنان زرزور، القرآن ونصوصه ، ص: 72.

⁴ - القرطبي ن الجامع لأحكام القرآن ج1 ص: 111-113.

والملاحظ أن هذه التسميات بعضها ينظر فيها للموضوع، وبعضها للفظ، فسورة البقرة سميت بذلك لما ذكر فيها من قصة بني إسرائيل والبقرة التي أمروا بذبحها، وأما تسميتها فسطاط القرآن فلعلظمتها وبهائتها، وما اشتملت عليه من أحكام وعبر وأخبار.

وكذلك سورة "غافر" سميت بهذا الاسم لافتتاحها بهذه الصفة الجلالية "غافر الذنب" وأما تسميتها "بالمؤمن" فلما ورد فيها من موقف المؤمن الذي يكتفئ إيمانه زمن فرعون، وضمن السورة واسمها، تطرح قضية "تنظيم القرآن". من حيث الترتيب والتدرج والتماصك والانسجام وما إلى ذلك من فنون النظم، وقد درس العلماء علاقات النظم دراسات وافية حتى وصلوا إلى استنباط قواعد كلية يعتمد عليها الناظر في القرآن نظرة متفحص فقال أحدهم: "الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو: أنك تنظر إلى الغرض الذي سبقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذكر الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام أو اللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا عقلته تبين لك وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية وفي كل سورة".¹

افتتاح السور وبراعة الاستهلال

نقطة الانطلاق: إن نقطة الانطلاق في تحليل الخطاب المعاصر ذات أهمية قصوى، فكأنما تحدد وجهة النظر التي بها نسترشد، ذلك أن: "الشيء الذي يستهل به المتكلم حديثه يؤثر حتماً في فهم كل ما يأتي".² وحينما نقف عند نقطة الانطلاق فكأنما حددنا الموضوع الأساس الذي يبنى عليه الخطاب بشكل مكثف، رغم ما لموضوعات القرآن الكريم من خصوصية متميزة، هذه الموضوعات

¹ - السيوطي، الإتقان، ص: 697.

² - ج.ب. براون/ ج. يول، تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطي و...، كلية الآداب جامعة الملك

التي تشير إليها نقاط الانطلاق، تبسط ظلالها حتى تؤلف نوعا من الانسياق اللفظي والانسجام الدلالي، لهذا كانت نقطة الانطلاق ذات علاقة بارزة بالعنوان، وهذا ما يتجلى في كثير من عناوين سور القرآن.

وقد وقف الدارسون عند استهلالات القرآن وقفات طويلة، فوجدوا أن صيغ الافتتاح متنوعة وداخل التنوع نوع من التساوق والوحدة، وبعد التحري تبين أن أنواع الاستفتاح يمكن ضمها في عشرة أقسام وهي:

1- الاستفتاح بالحمد والثناء على الله، وعدد السور أربع عشرة سورة، ويتخذ صيغتين:

- أ- صيغة إثبات صفات المدح، " كالحمد لله " و "تبارك..."
- ب- صيغة نفي صفات النقص وإثبات التحريم، مثل سبحان، سبح، يسبح..، يسبح..

2- الاستفتاح بالنداء (في عشر سور)

- أ- خمس في نداء النبي صلى الله عليه وسلم بصيغة يا أيها النبي، " أو يا أيها المدثر، ويا أيها المزمل"
- ب- خمس في نداء المتلقين المكلفين

• ثلاث يا أيها الذين آمنوا.....

• اثنتان يا أيها الناس.....

3- الاستفتاح بالجملة الخبرية في ثلاث وعشرين سورة.

4- بالقسم في خمس عشرة سورة.

5- بالشرط في سبع سورة.

6- بالأمر في ست سورة.

7- بالاستفهام في ست سور.

8- بالدعاء في ثلاث سور.

9- بالتعليل في موضع واحد. 4.

10- الاستفتاح: بالحروف المقطعة أو حروف التهجي في تسع وعشرين سورة.
وقد وقف الدارسون عند فواتح السور وخواتمها ، فقالوا جعل الله فاتحة : قد افلح المؤمنون " وأورد في خاتمها إنه لا يفلح الظالمون" وفي سورة"ص بدأها بالذكر، وختمها بقوله تعالى: "إن هو إلا ذكر للعالمين" وفي سورة "ن" بدأها بقوله: "ما أنت بنعمت ربك بمجتون" وختمها بقوله "ويقولون إنه لجنون..."¹

ووقفوا أيضا عند ترتيب السور فيما بينها من الفاتحة إلى الناس، ودرسوا اتساقها فيما بينها، ونظم الآيات داخل سورة واحدة، وتوصلوا إلى أن الآيات داخل السورة متماسكة بشكل عجيب، وأن هذا الانتظام والاتساق من أعظم وجوه الإعجاز القرآني.

وأما ترتيب السور في المصحف على ما هي عليه الآن، فمنهم من يراه اجتهدا بديلا باختلاف مصاحف الصحابة رضي الله عنهم، إذ يورد بعضهم أن مصحف علي بن أبي طالب ابتداء بـ : (اقرأ، المدثر، نون، المزمل، تبت، التكوير...) وأول مصحف ابن مسعود: (البقرة ثم النساء ثم آل عمران...) ²

قال ابن عطية: إن كثيرا من السور كان قد علم ترتيبها في حياته صلى الله عليه وسلم، كالسبع الطوال، والخواص، والمفصل، وأما ما سوى ذلك فيمكن أن يكون قد فوض الأمر فيه إلى الأمة.

ولكن المتبع يجد أن معظم السور كان مرتبا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا القليل النادر. وإذا كان هذا الترتيب حصل حوله الإجماع منذ الصدر الأول من الإسلام، فلا

¹ - السيوطي ، الإتقان ، ص: 699-700.

2 - عدنلن زرزور، القرآن ونصوصه، ص: 96-97.

معنى لإعادة طرحه الآن، إذ أي خروج عن المصحف الإمام المجمع عليه يؤدي بالضرورة إلى تساؤلات حول الأغراض الكامنة وراء ذلك الطرح الخارج عن الإجماع.

الاستفتاح بحروف التهجي

هذا الاستفتاح لفت جميع الدارسين، بل القراء العاديين، ورويت فيه أخبار، فقال قوم كل حرف مأخوذ من اسم من أسماء الله، فالألف من اسمه "الله"، واللام من لطيف، والميم من مجيد، فالف من آلائه، واللام من لطفه، والميم من مجده، يروى عن ابن عباس، وهو وجه جيد وله في كرام العرب شاهد: " قلنا لها قفي قالت قاف " .

وقيل إن الله -جلّ ثناؤه- أقسم بهذه الحروف بأن هذا الكتاب الذي يقرأه محمد صلى الله عليه وسلم، هو الكتاب الذي أنزله الله -جلّ ثناؤه- لا شك فيه، وهذا وجه جيد، لأن الله عز وجل دلّ على جلالة قدر هذه الحروف إذ كانت مادة البيان ومباني كتب الله -جلّ ثناؤه- المتزلة باللغات المختلفة، وهي أصول كلام الأمم بها يتعارفون وبها يذكرون الله جلّ ثناؤه...

وابن فارس بعد أن أورد هذه الأقوال وغيرها، مال إلى الجمع بين كثير منها فقال: " وأقرب القول في ذلك وأجمعه قول بعض علمائنا، إن أولى الأمور، أن يجعل هذه التأويلات كلها تأويلا واحدا، فيقال إن الله -جلّ وعزّ - افتتح السور، بهذه الحروف إرادة منه للدلالة بكل حرف منها على معانٍ كثيرة لا على معنى واحد، فتكون هذه الحروف جامعة لأن تكون افتتاحا للسور، وأن يكون كل واحد منها مأخوذا من اسم من أسماء الله -جلّ ثناؤه- وأن يكون الله -جلّ ثناؤه- قد وضعها هذا الموضع قسما بها، وأن كل حرف منها في آجال قوم وأرزاق آخرين، وهي مع ذلك مأخوذة من صفات الله -جلّ وعزّ - في إنعامه وأفضاله ومجده، وأن الافتتاح بها سبب لأن يستمع إلى القرآن من لم يكن يستمع، وأن فيها إعلاما للعرب أن القرآن الدال على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم هو بهذه الحروف، وأن عجزهم على

الإتيان بمثله مع نزوله بالحروف المتعاملة بينهم دليل على كذبهم وعنادهم وجحودهم، وأن كل عدد منها إذا وقع في أول سورة فهذا اسم لتلك السورة..."
ثم قال معلقا وهذا هو القول الجامع للتأويلات كلها من غير اطراح لواحد منها، وإنما قلنا هذا لأن المعنى فيها لا يمكن استخراجه عقلا من حيث يزول به العذر..."
ولعل الرأي القائل بأنها للتحدي يحمل جانبا كبيرا من الإثارة، وبخاصة حين نضع في الاعتبار أن معظم هذه السور مكية، ما عدا البقرة وآل عمران وهما من أول ما نزل بالمدينة، ومجموع هذه السور تسع وعشرون سورة قال الباقلائي : " الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفا، وعدد الصور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، وهو أربعة عشر حرفا، ليدل بالمذكور على غيره وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم..."¹ . وهكذا يستمر الباقلائي في عد الحروف ومواقعها حسب المدرج الصوتي المعروف عند العرب حينئذ.

ويرجح عدنان زرزور أن تكون الدلالات الأساسية محصورة في معنيين وهما: " التحدي والإعجاز من ناحية، والدلالة الموسيقية، والتمهيد النفسي والشعوري من جهة أخرى"².
إن وقوف القدماء أمام هذه الظاهرة، وتعدد تأويلاتها يؤكد "...بطريقة أو بأخرى، إحساس القدماء بأن " غموض" دلالة هذه الحروف تشكل جانبا من جوانب خصوصية النص، فهو غموض يولد تعدد القراءات والتأويلات في نصوص القرآن و"غيره من النصوص"، ولم تكن هذه المخالفة إلا آلية من آليات النص حقق بها تميزه وحقق بها من ثم قدرته على التفاعل مع الثقافة في المكان والزمان."³

1 - القاضي أبو بكر البقلائي، إعجاز القرآن، دار الهلال، بيروت، الطبع الأولى 1993، ص: 43.

2 - القرآن ونصوصه، ص: 149.

3 - نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، ص: 199.

والحروف المقطعة التي تبتدئ بها السور بمثابة الإشارة التي تميز المتن الذي بداخلها، وتنقل القارئ إلى هذا المتن برفق، حيث نجده يبدأ بنطق الحروف نفسها، وللنص القرآني خصوصيته في الزول والوجود وليس بالإمكان التصرف فيما له علاقة به، إلا أن يكون فهما أوتيه القارئ فاجتهد في إبدائه، ومن هنا كانت إشارات المفسرين باعتبارهم قراء إلى جملة من الملاحظات ذات العلاقة بالعبات، التي تزيل الحجاب عن كثير من المقاصد الخفية والنكت المعجزة، إلا أن المنظرين لم يقبلوا كل التأويلات، فابن خلدون يعلق على من وقف عند هذه الحروف باعتبار (حساب الجُمَّل) قائلا: "إن دلالة هذه الحروف على تلك الأعداد ليست طبيعية ولا عقلية، وإنما هي بالتواضع والاصطلاح الذي يسمونه (حساب الجُمَّل)، نعم إنه قديم مشهور، وقدم الاصطلاح لا يصير حجة..."¹

هذا بالنسبة لمطالع السور، إلا أن عناوينها قد تكون هي الحروف نفسها كما في "ص" و "ق" وقد تعنون ببعض ما فيها كالبقرة، أو العنكبوت، أو الشورى.

وقد طرح القرطبي سؤالاً حول هذه الحروف وهو قوله: كيف تسمى حرفاً أو كلمة، فأجاب: "بأنها كلمات وليست حروفاً، وعلة ذلك أن الحروف لا يسكت عليها، ولا ينفرد وحده في الصورة، ولا ينفصل مما يختلط به، وهذه الحروف مسكوت عليها منفردة منفصلة كأنفراد الكلم وانفصالها، فكذلك سميت كلمات لا حروفاً..."²

ويربط الدارسون بين فواتح السور والاستهلالات التي تأتي بعدها، ويلاحظون في هذه الاستهلالات غلبة الخطاب الموجه إلى المرسل إليه سواء باعتباره المستقبل الأول (الرسول) أو المستقبل الثاني (البشر)، فالمرسل إليه الأول الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي هو الواسطة بين الله (عز وجل) وبين البشر، مخاطباً مباشرة كما أسلفنا في خمس سور، بخطاب يفيد التوجيه

¹ - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط؟، س؟، ص: 333.

² - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 1، ص: 68.

والمؤازرة لتحمل أعباء الرسالة، والصيغة موجهة مباشرة بالأمر في ثلاث سور، وبلاستفهام مرة وبالشرط مرة أخرى، مما له علاقة مباشرة بالأفعال الإنجازية.

أما المرسل إليه الثاني - الذي هو الجمهور أو عامة البشر - فقد خوطبوا بخمس سور للمؤمنين ويدخل فيها مؤمنو أهل الكتاب والمسلمون وخوطبوا باثنتين موجهتين للناس عامة.

المكي والمدني:

ينظر إلى القرآن من حيث مكان النزول فيقسم إلى مكّي ومدني. وعدد السور التي نزلت بالمدينة سبع وعشرون سورة، وسائرهما بمكة، وقيل غير ذلك.¹ والمكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة في أشهر الأقوال²

ولا شك أن مبدأ المكانية والزمانية في الدراسة المعاصرة، من المناصات الأساسية وبواسطتها يحدد زمن ظهور النص. ولقد اهتم العلماء بتول القرآن ومكان ظهوره وتداوله الأولي، اهتماما بالغاً حتى روى البخاري عن ابن مسعود قوله: "والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتابه الله تعالى، إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت" وزاد مسلم "ولو أعلم أحدا هو أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لركبت إليه"³

والقرآن المكي عموماً يهتم بهذه الجماعة الناشئة ينافع عنها ويمدها بالإيمان وأسباب الثبات أمام التحديات، كما يمدها بأسباب القوة لمجاوزة العقبات الكثيرة، بينما يدور القرآن المدني على تطبيق العقيدة، وتصوراتها في الحياة الواقعية، وما يقتضيه ذلك من معارك عديدة على الجماعة المؤمنة في المدينة أن تضطلع بأعبائها.

¹ - عدنان زرزور، القرآن ونصوصه، ص: 125.

² - الإتيان، ص 35-36.

³ - روا البخاري، رقم (5002)، ومسلم رقم (2463)

إن تقسيمه إلى مكّي ومدني أشبه ما يكون بعنوانين الأقسام الكبرى للنص الواحد، وضمن الوحدة الكبرى التي تتفرع منها وحدات جزئية صغرى هي السور التي تنقسم بدورها إلى وحدات أصغر وهكذا...

من هذا التقسيم التوالدي تنتج مظاهر مختلفة، تتعلق بحجم السور وقصر الآيات وطولها، وإيقاعها من حيث الشدة والرخاوة، ومنها الموضوعات العقائدية والاجتماعية والتشريعية والتنظيمية. فالقرآن المدني يتعلق غالباً بالتشريع ودقائقه، وتسجيل ظاهرة النفاق، الذي لم يكن له وجود من قبل، كما يتناول جدال أهل الكتاب، وهذه موضوعات تؤكد الموضوعات الأولى المتعلقة بالعقيدة والتوحيد وترسخها.

أقسام القرآن: يقسم القرآن بالنظر إلى عدد الآيات وطولها وقصرها إلى أربعة أقسام، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أعطيت مكان التورات السبع الطول، وأعطيت مكان الزبور المثين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفُضلت بالمفصل"¹
فالسبع الطوال هي: البقرة، وآل عمران، والنساء والمائدة والأنعام والأعراف، وقيل السابعة هي براءة، وقيل غير ذلك.

أما المثون فسميت بذلك لأن كل سورة منها تزيد على مائة آية، أو تقاربها.
والمثاني ما ولي المثين لأنها تنتها، أي كانت بعدها.

والمفصل ما ولي المثاني من قصار السور، سمي بذلك لكثرة الفصول بين السور بالبسملة²
مناصات محيطة:

1- الاستعاذة : يمكن أن ندرس في المناصات المحيطة الاستعاذة التي يجب أن يبدأ بها القارئ امتثالاً لقوله تعالى : " فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم" (النحل98)، وقد أجمع العلماء على أن التعوذ في بداية التلاوة ليس من القرآن، فقد روي عن ابن مسعود

¹ - قال محققوا الإتيان رواه أحمد في المسند 4/107، وقال سنده حسن إن شاء الله، الإتيان 152.

² - الإتيان، ص167.

أنه قال: "قلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال لي النبي(ص): " يا ابن أم عبد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأني جبريل عن اللوح المحفوظ عن القلم"¹
وقد استفادوا في دراسة صيغ الاستعاذة وآثارها النفسية على القارئ وأحكامها الفقهية.
2- البسملة : ووقفوا طويلا أيضا عند البسملة، وكونها آية من القرآن أو ليست بآية إلى في سورة النمل، ودرسوا اشتقاقها اللغوية، وأحكامها الفقهية، من حيث الجود والندب في الصلوات وغيرها، كما وقفوا عند صورها الخطية، وآثارها ومكانتها. وقد فصل القرطبي كل هذه القضايا في بداية تفسيره.²

3- أسباب التزل (العتبات المحبطة)

أسباب التزل وثيقة الصلة بدراسة النص القرآني، والمقصود به: " ما نزلت الآية أو الآيات مبينة بحكمه أيام وقوعه..."³ كأن تقع حادثة أو يوجه للرسول صلى الله عليه وسلم وسلم سؤال، فتزل الآيات فيما يتصل بتلك الحادثة أو بجواب ذلك السؤال.
قال ابن فارس: " وفي كتاب الله سجل ثناؤه - ما لا يعلم معناه إلا بمعرفة قصته"⁴
ولكن لا يفهم من هذا كل الآيات وراءها أسباب التزل، إذ أن هناك آيات تزل ابتداء من غير سبب فتحدث عن الوقائع الماضية أو المستقبلية، كما الواحد في كتابه أسباب التزل أن سورة الفيل نزلت بسبب قصة قدوم أبرهه إلى مكة، فيرد عليه العلماء أن ذلك ليس من أسباب التزل. لأن الحادثة وقعت سنة ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم، لهذا قالوا " لحكمه أيام وقوعه "⁵.

¹ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص 86-91.

² - أحكام القرآن، ص: 91-107.

³ - عدنان زرزور، ص: 115.

⁴ - الصاحبي، في فقه اللغة، ص: 76.

⁵ - عدنان زرزور، القرآن ونصوصه، ص: 115.

ومن جانب آخر تعتبر الظروف التي يزل فيها القرآن غاية في الأهمية، إذ يتحدث فيها عن أسباب الزول مباشرة، أو بالإجابة عن ذلك السبب، غالباً ما تأتي الآيات مفتحة بقوله تعالى: "يسألونك " مثل : "ويسألونك عن ذي القرنين" و"ويسألونك عن الشهر الحرام" و"يسألونك عن الخمر والميسر" سواء كان الزول فوراً أو على التراخي.

فأسباب الزول تقدم لنا معرفة دقيقة وعميقة وتجسد السياق الذي تم فيه الخطاب، كما تقدم لنا معرفة للخطاب الموجه إلى المتلقي وحاله.

ويمكن لأسباب الزول المرتبطة بوضع خاص أو حدث أو اعتقاد أن تزيل اللبس الذي يمكن أن يحدث لمن لم يعايش الأحداث، كما تحدد أسباب الزول مجال الخطاب وما يشتمله من عموم أو خصوص.

هكذا يمكن القول إن دراسة عتبات النص أمر استفاض فيه قداماؤنا وربطوه بدراسات نقدية، وبخاصة في مطالع القصائد، واستهلالاتها ومقاطعها، إلا أن الدراسة الوفيرة موجودة في علوم القرآن، ضمن بحوث الإعجاز في مظاهره المختلفة، التي تستلزم وقفات طويلة من باحثين مختصين، ليدمجوا هذا المجال من الإعجاز في الدراسات النقدية المعاصرة، ومدخلتنا هذه هي إشارة لاستشارة المهم وتحفيز الطلبة على البحث في هذا الإطار.

هوامش المداخلة:

1- عبد الحق بلعابد ، عتبات جزار جنيت ، من النص إلى المناص ، منشورات الاختلاف ،

ط1، س2008/1429 ص.:30

2- ابن رشيقي المسيلي ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق : دار المعرفة بيروت ،

1988 ج1، ص.:117

3- القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء تح: محمد الحبيب بلخوجه، ط2، 1981. ص:

309.

4 -- نفسه ج1، ص: 388-389

- 5- جلال الدين السيوطي، الإتيقان في علوم القرآن، تحقيق: فواز أحمد زمرى، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1426-2005، ص: 690.
- 6- الإتيقان، ص: 135-138.
- 7- الإتيقان، ص: 137.
- 8- مصطفى سلوي عتبات النص، المفهوم والموقعية والوظائف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، سلسلة بحوث ودراسات 22، ط1، 2003، 185.
- 9- عبد الله بن إبراهيم الشنقيطي، نشر البنود على مراقبي السعود، وضع حواشيه فادي نصيف طاروق يحيى، دار الكتب العلمية، بيروت ط2/ 1426/ 2005، ج1، ص: 64.
- 10- السيوطي، الإتيقان ص: 139.
- 11- الشنقيطي، نشر البنود، ج1، ص: 64-65.
- 12- السيوطي، الإتيقان، ص: 136.
- 13- عدنان زرزور، نصوص القرآن جامعة دمشق، مطبعة خالد بن الوليد، سنة 1400/ 1980. ص: 42.
- 14- نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، المركز الثقافي العربي، المغرب/لبنان ط6، 2005.
- ص: 53.
- 15- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج1، ص: 95.
- 16- السيوطي، إتيقان، ص: 172-173..
- 17- عدنان زرزور، القرآن ونصوصه، ص: 72.
- 18- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج1، ص: 111-113.
- 19- السيوطي، الإتيقان، ص: 697.
- 20- ج.ب. براون/ ج. يول، تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطي و...، كلية الآداب

جامعة الملك

السعودي 1418-1997، ص160.

²¹ -السيوطي ، الإتيقان ، ص: 699-700.

²² - عدنان زرزور، القرآن ونصوصه، ص: 96-97.

²³ - القاضي أبو بكر البقلاني، إعجاز القرآن، دار الهلال، بيروت، الطبع الأولى 1993،

ص: 43.

²⁴ - القرآن ونصوصه، ص: 149.

²⁵ - نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، ص: 199.

²⁶ - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط؟ ، س؟،

ص: 333.

²⁷ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص: 68.

²⁸ - عدنان زرزور، القرآن ونصوصه، ص: 125.

²⁹ - الإتيقان، ص35-36.

³⁰ - روا البخاري، رقم (5002)، ومسلم رقم (2463)

³¹ - قال محققوا الإتيقان رواه أحمد في المسند 107/4، وقال سنده حسن إن شاء الله، الإتيقان

152.

³² - الإتيقان، ص167.

³³ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص 86-91.

³⁴ - أحكام القرآن، ص: 91-107.

³⁵ - عدنان زرزور، ص: 115.

³⁶ - الصاحبي، في فقه اللغة، ص: 76.

³⁷ - عدنان زرزور، القرآن ونصوصه، ص: 115.